

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مؤسستنا البيت الكبير للفكر الإسلامي



المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢-٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ / ٤-٧ أيلول ٢٠٠٧م

المسلمون اليوم بين واقع العنف والإكراه

و

خطاب المحبة والسلام

الدكتور محمد بشاري

عمّان - المملكة الأردنية الهاشمية

المسلمون اليوم بين واقع العنف والإكراه

و

خطاب المحبة والسلام

الدكتور محمد بشاري

أي مغزى نخرج به عندما نتحدث عن حقيقة السلام والمحبة والتسامح في الإسلام، إذا كان واقع المسلمين اليوم في العديد من الدول العربية والإسلامية، أبعد عن هذه الشعارات والقيم التي ميزت هذا الدين الحنيف؟

إن افتتاح هذه المداخلة بهذا التساؤل، تأكيد على مدى حاجة المسلمين اليوم، وفي أكثر من وقت، إلى هذه القيم، لأن أماننا خيارين مصيريين إذا لم نلتزم بهذه القيم:

إما خيار التدخل الأجنبي في السياسات والبرامج تحت شعار الإصلاح وفرض الديمقراطية وتأدية المهمة الحضارية التي تعود الغرب على فرضها على الشعوب الضعيفة والمتهالكة، والشعوب التي وصلت إلى حالة من الهوان، إلى أن أصبحت قابلة ومعرضة للاستعمار، أو تعيش قابلية الاستعمار كما وصفها المفكر مالك بن نبي .

أما الخيار الثاني، فيوجد بين أيدينا، ولا يخرج عن ضرورة الالتزام بقيم المحبة والسلام والتسامح، ولكن في إطار احترام مجموعة من الثوابت والأسس التي لا تجعل من تمسكنا بهذه القيم، نوعاً من الخضوع أو الخنوع أو الاستسلام للقوى التي تسعى إلى الهيمنة على دول العالم.

ضرورة تحرير المفاهيم:

نحن نرى بأنه لا بد أولاً من تحرير المفاهيم التي نتحدث عنها حتى لا نسقط في شبك الخاط واللبس والضبابية، فنحن عندما نتحدث عن التسامح مثلاً، فإننا نعترف بأن هناك فرقاً بين تسامح الأقوياء وتسامح

الضعفاء، بل إننا نرى أن هناك فوارق حتى بين مفاهيم التسامح كما جاءت في الأديان السماوية، وبين الاجتهادات الفلسفية والفكرية التي عالجت هذا المفهوم، وذلك لسبب طبيعي، يتعلق بقداسية النصوص الدينية المنزلة من الخالق عز وجل مقارنة مع نسبية الاجتهادات الفلسفية والفكرية.

وتنطبق نفس الملاحظة على طبيعة قراءتنا لمفاهيم السلم والمحبة. وهناك إشكالية أكبر تتعلق بمعالجة هذه المفاهيم، وهي التي تقف بالدرجة الأولى وراء تأكيدنا في هذه المداخلة على ضرورة احترام مجموعة من الثوابت والأسس التي لا تجعل من تمسكنا بهذه القيم، نوعاً من الخضوع أو الخنوع أو الاستسلام للقوى التي تسعى إلى الهيمنة على دول العالم.

إنها إشكالية الظرفية الزمنية، التي تتطلب منا أن نكون حذرين عندما نتحدث عن السلم والتسامح والمحبة، مع أنها من أنبل القيم التي جاءت بها الديانات السماوية، وخاتما الدين الإسلامي الحنيف. تؤكد على ضرورة الحذر حتى لا يتم تأويل كلامنا على أساس أنه يصنف في خانة خطاب الضعف والهوان، فمتى كانت "خير أمة أخرجت للناس"، أمة الضعف والهوان.

لا شك أن الظرفية الزمنية التي يمر منها العالم الإسلامي اليوم، تكرر هذه الإكراهات في الحديث عن هذه المفاهيم، وتزداد هذه الإكراهات عندما نأخذ بعين الاعتبار مجموعة من التحديات التي يمر بها اليوم العالم الإسلامي. وقد سبق لنا أن استعرضنا أهم هذه التحديات في كتاب لنا صدر العام الماضي^(١).

ومع ذلك، ورغم أهمية هذه التحديات والإكراهات، نرى أنها لا تحول دون إعلان تمسكنا بقيم السلم والمحبة كما جاءت في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ولو انطلاقاً من كوننا مسؤولين أخلاقياً على الأقل عن ما يجري في العالم بأسره.

في هذه المرحلة الحاسمة التي تعيش فيها الأمة واحدة من أهم حروبها منذ النصف الثاني من القرن العشرين، وجب على الأمة أن تضع خلافاتها جانبا. لكن المؤسف أن هذه الحرب الجديدة بدأت بينما الأمة

(١) العالم الإسلامي وتحديات ١١ سبتمبر ٢٠٠١. محمد بشاري. دار الفكر. دمشق. ٢٠٠٦

في أشد حالات تفرقتها وخلافاتها البينية. وتحدث عن الخلافات بين الناس المسلمين، بمن فيهم الذين يقودون الفكر ويوجهون آراء الناس، فالأمة في أشد مراحل انقسامها الطائفي، بخاصة بين فريقَي السنة والشيعة، كما أننا رأينا في العراق وعقب سقوط النظام الذي كان يمنع الخلاف الطائفي، كيف ظهر الخلاف فوراً إلى السطح حتى أنه أخذ شكلاً دموياً لدرجة أننا معها نخشى أن يتطور الأمر إلى حرب أهلية حقيقية.

السنا في واقع الأمر بحاجة إلى "إسلام الحرب" الذي تذوب فيه الخلافات وتختفي فيه الطوائف، فتظهر صورة أمة واحدة لها إسلام واحد لا يعرف التباينات^(١).

السنا اليوم بحاجة أكثر إلى خطاب المحبة والسلام لكي نعلن نهاية الفتنة الطائفية في العراق؟ السنا بحاجة إلى هذا الخطاب حتى لا نسمع مرة أخرى عن تورط حركات إسلامية تدعو إلى الجهاد ضد أبناء الدول العربية والعالم الإسلامي؟ السنا بحاجة إلى هذا الخطاب لكي نعالج أزمات الأقليات الدينية والمذهبية والعرقية في الدول العربية والإسلامية، حتى لا تكون مطية لجهات أجنبية ودول عظمى من أجل التدخل والضغط واستغلال هذه المعارك والخلافات خدمة لمصالحها الاستراتيجية بالدرجة الأولى، على حساب مصالحنا العربية والإسلامية؟

وقفات مع مفهوم المحبة:

بعد هذه الوقفة مع إشكالية الظرفية الزمنية التي تتطلب منا أخذ الحذر في الحديث عن المفاهيم، نتوقف عند بعض التعريفات التي جاءت حول المحبة، وذلك تقلاً عما جاء في أدبيات متفرقة.

فقد قيل إن المحبة هي أساس الحياة ولولا المحبة لما استمرت الحياة. ومن المعلوم أنها في قلب كل إنسان حتى لا يكاد يخلو منها قلب، ولكن المحبة ليست على درجة واحدة ولا على نوع واحد، ومن أنواع المحبة، نذكر مثلاً محبة الإنسان لنفسه ومحبة الإنسان لولده ومحبة الفطرة (حيث فطر الله الإنسان على محبة أشياء

(١) الحاجة للوحدة ونبذ الخلاف، سامر أحمد، جريدة الغد، عمان. ٢٠٠٧/٨/٣١.

كثيرة في هذه الحياة كمحبة الجمال فليس هناك إنسان إلا ويحب الجمال سواء أكان الجمال جمال إنسان أم جمال طبيعة لكنه يختلف من إنسان لآخر) وهناك أيضا محبة الإحسان ومحبة كامل الصفات .

وحسب بعض الأدبيات الصوفية^(١)، فإنه من الممكن لكل مؤمن بالله تعالى أن يجعل من هذه الأنواع محبة واحدة ألا وهي محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بالمحبة من محبة الإنسان لنفسه فإذا كانت نفس الإنسان تسعى إلى الشهوات والملذات التي تؤدي إلى هلاكه في دنياه وآخرته فرسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى إلى أن يحقق له سعادة أبدية في دنياه وآخرته . والله تعالى يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦) .

أما محبة الفطرة فإذا كان الإنسان قد فطر على محبة الجمال فليس هناك في الوجود من هو أجمل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرسول الله أولى أن يُحَبَّ لأنه قد حوى الجمال كله فهو أجمل البشر على الإطلاق صلى الله عليه وسلم .

وأما محبة الإحسان فليس هناك أحد في هذا الوجود إلا وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فضل عليه حتى إن وجوه إحسانه صلى الله عليه وسلم على الخلق لا يمكن أن تعد أو تحصى فبه هدى الله البشرية وبه أنقذها من الضلال إلى الهداية وفوق ذلك كله الكل ينتظر شفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

وأما عن محبة كامل الصفات، فهل هناك من هو أكمل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكل من اتصف بصفة من صفات الكمال إنما هو مقتبس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخصه الكريم جميع الأخلاق الحسنة فكان خلقه القرآن كما أخبرت بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً) ولقد حاز رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدرجة القصوى حتى كان خير أسوة

(١) المحبة في الإسلام . مجلة مقامات عرفانية . إبراهيم الوراق التجاني . ٦/٨/٢٠٠٧ .

لكل من أراد الله، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

إن الإسلام هو بحق دين المحبة والسلام، والمحبة والسلام من المبادئ السماوية الحكيمة، ولكي نفهم
هذه القضية فهما واضحا ومستقيما يجب علينا أن نبحث معا مصدر الإسلام. ومن أين جاءت تعاليمه؟
وعلى من نزلت تلك التعاليم؟ ولماذا أنزلت من السماء؟

والمحبة في الإسلام ليست مجرد شعور، وليست محض فكرة، وإنما هي شعور قوي خلاق ينبعث من
قلب عامر بحب الله، ويتبعه تصرف سليم مهذب، وسلوك قويم يفيض بالخير والمحبة على صاحبه وعلى
الناس أجمعين.

وقفات مع مفهوم السلم:

بالنسبة لمفهوم السلم، فقد جاء الإسلام أصلاً سلاماً على العالمين، ومكرساً لنهج السلم في العلاقات
بين الأفراد والمجموعات، وإذا ما كان السلم قيمة ثابتة وأساسية في الإسلام، فإن الحديث عن السلام لا يخضع
لظرفية ما، بقدر ما يكون ترسيخاً لإيمان عميق بأن ما يجمع البشر أكثر وأهم مما يفرقهم، وأن الأمن والاستقرار
لن يتحققا في العالم دون تغليب لغة الحوار على لغة الصراع.

ومن المفارقات أن الدعوة للسلم تتصاعد عند اشتداد الأزمات حين تكون الظروف مانعة للاستماع
إليها، وحين تكون الإثارة والإيمان بالقوة أقرب إلى النفوس من دواعي العقل والرصانة. ومعلوم أن العالم العربي
عاش طوال الخمسين سنة الأخيرة على الاعتقاد بأن الحل لا يمكن أن تكون إلا عسكرية إيماناً بأن الدعوة
للسلم استسلام.

إن نشر ثقافة السلام يبدأ بنشر الثقافة بين شعوبنا ونشر ثقافة الدين القويم لا نشر ثقافة الشعوذة، وإن
الحرية هي نتاج التقدم العلمي والتقني والاقتصادي والاجتماعي وكذلك التقدم السياسي. وكل هذا رهين
عقلنة التربية وعقلنة السلوك.

وكما أسلفنا في بداية هذه المدخلة، بخصوص عدم تصنيف حديثنا عن السلم والتسامح والمحبة، في خانة الخنوع، فإننا نتذكر ما جاء في كلمة السيد مختار أمبو، المدير العام السابق لليونسكو، على هامش ندوة فكرية في الموضوع، حيث ذكر أنه في الوقت الذي كان يكتب فيه مدخلته كانت آلاف القنابل تسقط على شعب عراقي لا ذنب له سوى أن بلده يحتوي على ثروة نفطية، ولكن، وهذه نقطة مهمة للغاية، الحركة الواسعة المناهضة للحرب على العراق تؤكد أن فكرة السلام ما زالت حاضرة في ضمائر الشعوب.

إن كل دين يجتبي بالسلم حتى يمكن القول إن السلم قيمة دينية، ويركز معظم المؤمنين من الديانات التوحيدية وفي العلاقات المتبادلة بين أديانهم على تماثل النظام الأخلاقي وتماثل قواعد السلوك في كل الأديان ولا سيما في المسيحية والإسلام. وإن القول إن الرغبة في بناء العلاقة بين الأديان على أساس السلم تتقدم في مرتبة الأهمية لدى المؤمنين على كل أمر آخر، وأنه يشهد مزيداً من التماهي بين الديانات وبين مبادئ حقوق الإنسان⁽¹⁾.

لقد جاء في أحد مؤلفات الإمام الشيرازي أن القاعدة الأولية في الإسلام هي السلم والسلام، والأصل هو اللاعنف، أما القتال والحرب فهي الاستثناء، ولا مسوغ للحرب في نظر الإسلام مهما كانت الظروف، وهو- أي الإسلام- لم يأذن بالحرب إلا دفاعاً للعدوان، وحماية للدعوة والمستضعفين، ومنعاً لاضطهادهم، وكفالة لحرية الدين وهي من الحريات المشروعة لكل إنسان، فإنها حينئذ تكون فريضة من فرائض الدين.

وكما يؤكد الإسلام على ضرورة السلم والسلام، فإنه في المقابل يرى ضرورة أن يكون المسلم قوياً غير ضعيف حتى لا يطمع فيه الأعداء، فتحقيق السلام لا بد له من وجود قوة كافية للحفاظ عليه، لأنه لو لم يكن الحق مدعماً بالقوة، لما انتصر على القوى التي تدعم الباطل، وهذا ينطبق على التحذير الذي تحدثنا عنه سابقاً بخصوص انتهاج سياسة السلم واللاعنف، التي يجب ألا تسقطنا في مظلة الخنوع، لأن هذه المظلة عملت على تشويه فكرة السلم وجعلتها قريبة من منطق الاستسلام، فالسلم واللاعنف استراتيجية تتخذ من

⁽¹⁾ انظر تغطية أشغال ندوة "الإسلام والسلام" بتونس، تحت شعار "على فكرة السلام أن تنهض في العقول كما نهضت فكرة الحرب"، تقلاعن موقع مجلة "أفكار"، وقد أنجزت التغطية خيرة الشيباني.

موقع القوة، لا الضعف، كما يتصور البعض، فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) استخدم أسلوب السلم قبل الهجرة وبعدها، وكلنا نردد مقولته الخالدة عندما فتح مكة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"^(١).

وأخيراً، إن عملية التعارف بين الإنسان وأخيه الإنسان قد ابتدأت بالتحية وهي أول كلام يحصل في اللقاء وقد أراد الإسلام أن تكون نقطة الابتداء عنواناً للسلم والسلام، فكانت التحية: "السلام عليكم"، فلما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق جعلهم أمماً وشعوباً، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۗ﴾ (الحجرات: ١٣). فالخلق مأمورون بالتعارف فيما بينهم، ومن حكمة تصنيف البشرية إلى هذا التقسيم هو حصول التعارف بينهم وهو أمر غير عسير، فيبتدأ من الخلية الصغيرة وهي الأسرة، ثم ينتقل إلى دائرة أوسع وهي القبيلة، ثم إلى محيط جامع وهو المجتمع وهكذا، وبهذا تسهل عملية التعارف بين الأسر والقبائل والشعوب فيما بينها، ويستدل بالآية على لزوم تعارف الأمم والشعوب والقبائل كي يحصل التعاون والتواصل فيما بينها. ونحتم هذه الوقفة مع مفهوم السلم بالتوقف عند بعض إسقاطاته العملية، ومنها المعاملة الحسنة والحسنى، والاهتمام بالآخرين، والتواضع الإداري، والقول اللين، وإعانة الغير، ورفع المعنويات، والعفو عن الخطئية، والحزم البعيد عن العنف، وممارسة النقد البناء، وتقسيم الأعمال، ومكافأة الأفراد، وتقبل النصيح، والاعتراف بالخطأ.

تحدي التحديات:

بقي أن نتوقف عند نقطة نرى أنها ضرورية، وطالما توقفنا عندها في العديد من اجتهاداتنا، وتعلق بعملية التطبيق العملي، الذي يتم ما يأتي في تنظير فكري.

إن مجرد تنظيم مثل الندوات واللقاءات الفكرية والعلمية، هو تعبير عملي عن حسن نوايا المسؤولين على هذا التنظيم، ومن المتعارف عليه، أن أغلب هذه اللقاءات تنتهي بمجلاصات وتوصيات تعتبر بمثابة زيادة

(١) الكتاب: السلم والسلام. الإمام محمد الشيرازي. دار العلوم، بيروت. ٢٠٠٥.

اجتهادات المتدخلين، من مفكرين وباحثين، ونرى أنه لا بد من الانتقال إلى طور نوعي في مرحلة ما بعد تحرير التوصيات، ويكمن هذا الطور في العمل جميعاً على تطبيق هذه التوصيات على أرض الواقع، وليس الاكتفاء بمجرد تحريرها، وإلا سنكون كمن يدور حول حلقة فارغة وغير مؤسسة .

إن الكرة بمرمانا أولاً، وعلينا أن نتحمل مسؤوليتنا التاريخية والحضارية في العصر الراهن، واللهم

اشهد .